الثورة الفرنسية
والقرن التاسع عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

أخذت المكتبات منذ نهاية العصور الوسطى في النمو والتطور بخطى ملحوظة فمع بداية عصر النهضة وجدت المكتبات نفسها أمام عدد من المشكلات الجديدة تتعلق بالتنظيم الداخلي . وكما خلق عصر النهضة مكتبة المراجع الدراسية فقد وجد القرن التاسع عشر نفسه مزدحماً بسلسلة من المشاكل المعقدة تتعلق بتنظيم المكتبات . وبدخول عصر النهضة انقلبت ملكية أعداد ضخمة من الكتب إلى ملاك جدد وقد حدث هذا الأمر مع بداية عصر التنوير بدرجة كبيرة . وفي الفترة السابقة كانت حركة الإصلاح هي القوة المحركة أما الآن – في هذه الفترة – فإن القوة الدافعة كانت هي الثورة الفرنسية .

ففي نوفمبر ١٧٨٩ أصبحت الكنائس في فرنسا ملكاً للدولة وبعد ثلاث سنوات صودرت مجموعة كتب المهاجرين ، حتى ليقال إنه حجز في فرنسا في ذلك الوقت ثمانية ملايين كتاب منها مليونان في باريس وحدها . وأصبحت المشكلة الحقيقية هي المحافظة على الأعداد الهائلة من الكتب، وتصنيفها ووضعها لاستخدام العامة وأصدرت الحكومات الثورية المتعاقبة سلسلة طويلة من اللوائح والقوانين الإدارية كما وضعت أسس فهرس فرنسي موحد عظيم ولكن الوقت كان مايزال طويلاً لإنضاج هذه الإجراءات . وعلى العموم فقد استقرت أعداد هائلة من الكتب في مخازن مؤقتة سميت المخازن الأدبية Depots litteraires ومنها نشأت مكتبات الأحياء التى أسندت إدارتها إلى سلطات البلدية في سنة ١٨٠٣ بينما بقيت الحكومة مجرد قوة مشرفة. ولكن الرغبة في هذه المكتبات العامة لم تشتد إلا بعد وقت طويل فلم يوضع نظام عام لضمان فاعلية هذه المكتبات إلا بعد منتصف هذا القرن (التاسع عشر) تبعه بعد ذلك بقليل إعادة تنظيم المكتبات الجامعية[١] .

فقد أسست ثمانية مخازن للكتب في العاصمة (باريس) ، يضاف إلى ذلك مجموعات الكتب

(١) انظر : Charles Mortet = "The public Libraries of France,national, Communal and University" Library Associaion Record,n.s.vol.III, 1925. 145-159.

الإضافية في المعاهدة الجديدة، : الإرسنال arsenal سانت جنفييف الأهلية Bibliotheque Na-tio nale وقد زادت مقتنيات المكتبة الأهلية إلى حوالى ٣٠٠ر٠٠٠ مطبوع بالإضافة إلى عدد كبير من المخطوطات من بينها ذخائر سانت جيرمان بري والسوربون . كما أن الأقاليم قدمت نصيبها من الكتب إلى المكتبة الأهلية وحينما عادت جيوش الجمهورية والإمبراطورية منتصرة من الأراضي المنخفضة وألمانيا والنمسا وإيطاليا أحضرت كثيراً من الكتب القيمة إلى باريس من مكتبات هذه البلاد . ولم يرد إلا أقل القليل منها بعد سقوط نابليون . وقد صدر في سنة ١٨٠٥ قانون يقضي بإكمال مجموعات المكتبة الأهلية بقدر الإمكان من مقتنيات المكتبات الأخرى في فرنسا عن طريق تبادل المكررات في مجموعاتها . وعلى الرغم من أن هذا القانون لم ينفذ بكل دقة إلا أنه منذ ذلك الوقت تقرر أن تكون المكتبة الأهلية هي المكتبة الرئيسية في فرنسا ليس اسمياً فقط وإنما بالفعل أيضاً . وفي نفس الوقت جددت ودعمت القوانين القديمة الخاصة بالإيداع القانوني لنسخ من الكتب التي تنشر في فرنسا(١) .

ويعتبر هذا التصوير السريع لمجموعات المكتبة الأهلية مبتوراً إذا لم نذكر الجهود الضخمة التي بذلها جوزيف فان برايت joseph van Braet الذي كان في ذلك الوقت مديراً لقسم الكتب المطبوعة . إذ يرجع إليه الفضل أولاً وأخيراً في انتهاز كل الفرص التي قدمتها الظروف آنذاك . وفي ظل قيادته وضعت القوانين الحكومية الخاصة بتقديم خدمات المكتبة لكل شخص، موضع التنفيذ . وهو وحده – بفعل ذاكرته الخارقة – كان يشق طريقة وسط هذه الذخائر المكدسة واستحق – بحق – أن يلقب بالفهرس الحي Le catalogue vivant .

لقد كان للثورة أثران غاية في الأهمية بالنسبة لتاريخ المكتبات الفرنسية مما :

مركز مجموعات الكتب ، ووضع الكتب لاستخدام عامة الناس، ولننتقل الآن لنرى كيف اقتفت ألمانيا أثر جارتها .

فقد تسبب انحلال طائفة الجزويت في ألمانيا في انتقال عدد ضخم من الكتب وفي نفس الوقت بدأ كثير من الكنائس والأديرة الأخرى في عرض كنوزها من الكتب والمخطوطات للبيع مما هيأ فرصة ذهبية لجامعي الكتب والوكلاء وتجار الكتب والمخطوطات . ومن هؤلاء موجيرار Maugerard البندكتي الذي فاق كل زملائه في حيله وطرائفه في الحصول على الكتب بأقل ثمن .

---

(١) See : Henri Lemaitre = Histoire du dèpot legal. ler partie. Paris 1910., Robert Grouzel = Le dèpotlègal . Toulouse 1936.

وابتـداء من عـام ١٧٩٤ ومـاتلاه كـانت هناك زيارات على طول الراين يقـوم بهـا عـمـلاء فرنسيون، ومع بداية القرن (التاسع عشر) كان موجيرار أحد هؤلاء العملاء يضع كل معرفته وخبرته في خدمة موكليه الباريسيين مما حدا بهم إلى تخليد اسمه على قرص معدني أقيم خصيصاً لهذا الغرض . فلم يجد طريقه إلى مخازن الكتب التي بدأ إنشاؤها على التربة الألمانية إلا الكتب القليلة القيمة فقط . ولم تتعرض إحدى الولايات الألمانية لنهب وسلب كتبها من قبل العدو مثلما تعرضت بروسيا . وفي وولفنبوتل نقل جزء صغير من مجموعاتها إلى باريس . أما مكتبة جوتنجن أهم مكتبة في المملكة الجديدة وستفاليا westphalia فقد ظلت كما هي دون مساس . وفي الحقيقة حاول جيروم بونابرت jerome bonaparte أن ينفذ لمكتبة جوتنجن على نطاق ضيق مانفده أخوه على نطاق واسع في المكتبة الأهلية، ولكن الكتب التي وردت من الخارج ظلت بأربطتها حتى إنتهاء الحكم الفرنسي فأعيدت من حيث أتت .

وبالنسبة لبقية المكتبات الألمانية فقد كان القانون الأساسي المسمى Limperial Deputation في سنة ١٨٠٣ قانوناً نافذ المفعول[1] . وباختفاء عدد من الولايات وجمهوريات المدن أختفى من الوجود عدد كبير من مكتباتها الممتازة أو تغيرت ملكيتها وأهم من ذلك كله صارت مكتبات الكنائس ملكاً للدولة كما حدث في فرنسا .

وقد أسفر تحويل هذه المكتبات إلى أغراض دنيوية ، عن نتائج باهرة في ولايتي بافاريا وميونخ بصفة خاصة وحين انتقل التاج إلى أسرة بلاتين ، انتقلت المجموعات الضخمة في مكتبة مانهايم إلى ميونخ. وفي هذا الوقت أيضاً وتحت إشراف وإدارة فون أرتن Von aretin البارع أخذت حوالى ١٥٠ مكتبة كنسية وديرية طريقها إلى العاصمة ونتيجة لذلك احتلت مكتبة هوف bibiothek Hof في ميونخ مكان الصدارة بين المكتبات لفترة طويلة وماتزال مجموعاتها من مخطوطات العصور الوسطى وأوائل المطبوعات لاتضارع .

وبالإضافة إلى ميونخ فقد مدت حكومة بافاريا يد المساعدة أيضاً إلى مكتبات بامبرج ، ورزبرج . وسارت الأمور سيراً حسناً – ولو على نطاق ضيق – في ورتمبرج وبادن حيث نمت مجموعات شتوتجارت وكالزروه نمواً محسوساً ، ونفس هذا الكلام ينطبق على هسن – دار

(١) بمقتضى هذا القانون الذي أعده ثمانية من قادة ألمانيا السياسيين نوي النفوذ أعيد تنظيم مقاطعات ألمانيا إدارياً مما أدى إلى خفض عدد الوحدات الإدارية في الإمبراطورية وقضى تقريباً على الولايات الأكليركية والقرى الإمبراطورية والمدن الحرة، وكانت نتيجة ذلك بناء عدد من المقاطعات متوسطة الحجم منسجمة جغرافياً

انـــظـــر C.T. Atkinson = AHistory of Germany, 1715-18 15 London. 1908.460.

مشتادت Hessen-Darmsladt أمـا في ناسـاو Nassau فقد بددت مجموعات الكتب بطريقة إجرامية.

أما في بروسيا فلم يكن تحويل المكتبات الكنسية إلى علمانية أمراً ذا بال لأن هذه المكتبات الكنسية لم تشكل إلا جزءاً صغيراً جداً من المكتبات . وأكثر من ذلك لم تكن هناك أية خطة لمركزة المجموعات يمكن أن تفيد منها برلين إنما كان يصل إلى هذه المدينة فقط عدد ضئيل من المكررات . والذي يستحق الاهتمام حقاً هو النمو الملحوظ لمجموعات مكتبات مونستر وكونجزبرج وفوق كل ذلك برسلاو وفقد نقلت الجامعة من فرانكفورت إلى برسلاو وجاءت معها مجموعاتها ومن هنا كان التخطيط ليصبح في برسلا و مكتبة مركزية تشبه تلك التي وجدت في ميونيخ وباريس ومع أنه قد أوقف نقل مجموعات مكتبات الكنائس إلى هذه المكتبة بعد فترة قصيرة إلا أن مقتنياتها بلغت ٧٠٫٠٠٠ مجلد من بينها عدد كبير من أوائل المطبوعات .

ولقد خلقت هذه التغييرات التي حللناها سابقاً مشكلة تسهيل استخدام تلك المكتبات ، الجديد منها والقديم المتطور ، تلك المشكلة الصعبة لأن الحاجة إلى المكتبات غدت حاجة ملحة للأسباب الآتية : ففي المقام الأول أصبح الشعور القومي المتزايد في ألمانيا والتغيير في النظام الاجتماعي دافعاً قوياً إلى اعتبارالمكتبات عموماً مؤسسات عامة، كما أنه في هذا القرن زادت المناشط الدراسية والعلمية مما أثر بصورة مباشرة على المكتبات التي وجدت نفسها غير مستعدة بالمرة لمسايرتها كما يفهم ذلك من الفصل السابق ، ولم تكن هناك أي فئة من أمناء المكتبات المدربين . ومع ذلك فقد كانت هناك مكتبتان – درسدن وجوتنجن – ساعد تنظيمهما على أن تكونا نموذجين نافعين .

ففي هذه الفترة ساد نظام مكتبة جوتنجن بنجاح كل ألمانيا تقريباً ، فقد طبق في المكتبات الجامعية في بروسيا والمكتبات التي أنشئت حديثاً آنذاك في بون وبرسلاو . ويرجع تطبيق ذلك النظام في برلين أيضاً إلى ولهلم فون همبولدت Withe im von Humboldt الذي كان طالباً في جوتنجن وخلق صداقة طيبة مع هاين . لقد أنشئت جامعة برلين في ذلك الوقت وتبعاً لذلك زادت مسئوليات المكتبة الملكية زيادة كبيرة(١) وعلى يد همبولدت زادت الميزانية السنوية وأدخلت تحسينات على البناء التنظيمي للمكتبة ، كما وضعت ترتيبات مرنة لتسهيل استخدام المكتبة . وكان فهرسها الهجائي يشبه إلى حد كبير فهرس جوتنجن،، وبعد عقدين من الزمان استخدم

(١) على الرغم من أن مكتبة الجامعة كانت تملك مجموعة مراجع قوية إلا أنها كانت دائماً تلجأ إلى مجموعة المراجع والمصادر الغنية الواسعة في مكتبة ولاية بروسيا التي لم تحاول منافستها .

أسكريدر Schrader طرقه الخاصة لإعداد فهرس مصنف . ومنذ ذلك الوقت أيضاً أصبح للمكتبة الرئيسية في بروسيا أداة إدارية لم تتوفر لا للمتحف البريطاني ولا للمكتبة الأهلية[1] وفي مكتبة برلين كانت الأمور بسيطة نسبياً ولكن كيف تغلبت أختها في ميونيخ على مشكلاتها البالغة الصعوبة؟

منذ البداية كانت هناك محاولة لتجميع المخطوطات موضوعياً ولكن لحسن الحظ عدل عن هذه الطريقة بعد فترة قصيرة . ولقد تمثل جهد إسكملر Schmeller ليس فقط في تأكيده على استمرار التقليد التاريخي في ترتيب الكتب ولكن أيضاً في قيامه بالفهرسة والترفيف تبعاً لهذا المبدأ خلال السنوات من ١٨٢٩ - ١٨٥٢ . ولقد استطاع تلاميذه وتابعوه اقتفاء لأثره أن ينشروا فهرس مخطوطات ميونخ التذكاري[2] .

واتبعت نفس الطريقة مع الكتب حديثة الوصول إلى المكتبة ، وهنا أيضاً حدثت بعض الأخطاء التجريبية إلى أن ظهر المنقذ اسكر يتنجر Schrettinger صاحب العقلية العلمية، الذي أدرك أن محاولة تقليد نظام جوتنجن مقضي عليها بالفشل وأن المشكلة الخاصة التي واجهته تحتاج في حلها إلى حل ذاتي . وتبعاً لذلك صنف كتبه إلى مجموعات صغيرة متناسقة لم يلبث أن جمعها في أقسام رئيسية قليلة. وأتم الفهرس الهجائي حتى سنة ١٨١٨ . وأما خططه ومشروعاته الأخرى فقد سبقت أوانها، وصادف بعضها اعتراضاً من جانب زملائه في العمل والبعض الآخر لم يكتمل تنفيذه ولكن اسكريتنجر ترك لهم خططاً وآراء كثيرة في كتاباته النظرية التي نجد فيها هدفه الأساسي الذي بلوره في العبارة التالية «إذا كان لنا أن نزيل مساوى النظم والطرق العتيقة القديمة فلابد من إرساء قواعد مبتكرة لعلم مكتبات قوي» .

وكان من معارضي هذه الفكرة ف.ا. إبرت F.A. Edert الذي تدرب في درسدن وتشبع بنظام وروح فرانكي وجعله مثله الأعلى . وبعد ذلك عين رئيساً لمكتبة وولفنبوتل في سنة ١٨٢٣ وبدأ في إعادة تصنيفها دون النظر إلى الظروف المحلية، وقبل أن يتم العمل بها اضطر للعودة إلى درسدن حيث واجه حتفه بسقوطه من أعلى السلم ولم يبلغ الأربعين من عمره وعلى الرغم من أن إنجازاته العملية - في ضوء ماسبق - كانت قليلة الأهمية، إلا أن إنتاجه العلمي يستحق كل اهتمام . ونذكر هنا فقط «تاريخ مكتبة درسدن» الذي اعتمد فيه على وثائق ومصادر أولية

---

(١) ومع ذلك يجب أن نوجه الاهتمام إلى الكشافات الموضوعية للمتحف البريطاني) Subject Index of the modern works added to the Library 1881 - London, 1902, and subject Index of books published up to and including

(٢) Catalogus codicum mauuscriptorum bibliothecae regiae monacensis. Tom I-III . Munich 1858-1915.

وقاموسه الببليوجرافي الذي جاء نتيجة دراسة عملية دقيقة[١] . وكذلك رسائله الأصلية في المخطوطات التي كانت تنمو بنمو ذخائر المكتبة في وولفنبوتل . ويجب علينا أن نقف برهة أمام مقالته الشابة «عن المكتبات العامة»[٢] . فهو في ذلك المقال يتهكم على أحوال المكتبات الجماعية التي كانت القاعدة الوحيدة السائدة في القرن التاسع عشر ناعتاً إياها بأنها «حجرات متربة مقفرة لايتردد عليها أحد ، وحيث يقضي على أمين المكتبة أن يمكث عدداً قليلاً من الساعات كل أسبوع لتأدية واجباته وهو خلال هذا الوقت يكون وحيداً وينطلق من تقرير هذه الحالة إلى تقديم مقترحاته للإصلاح ومن بينها : «التخلص من اعتبار العمل المكتبي عمل نصف وقت . فإن الإدارة السليمة للمكتبات العامة تتطلب أشخاصاً يتحلون بصفات عقلية ممتازة وشخصية قويمة يكرسون كل إمكانياتهم للقيام بالواجبات الملقاة على عاتقهم» . وهذه الأفكار نجدها مرة أخرى بشكل أعمق وأكثر توسعاً في مؤلف متأخر له هو «الإعداد المهني لأمين المكتبة» [٣] .

«أنا أبذل كل طاقتي في خدمة الآخرين Alus inserviendo consumor هكذا كان يوصى إبرت كل مشتغل بالمكتبات بأن يتخذها شعاراً له ، وكان اسكر يتنجر يتخذها مثلاً . وطالما اختلف هذان المكتبيان فإن ذلك كان ينعكس على طرق علمهما . فقد كان اسكر يتنجر أولاً وقبل كل شيء رجلاً عملياً يولد مبادىء وأسساً جديدة من المشكلات الجديدة التي كانت تواجهه ، أما إبرت النظري فقد ظل منغمساً إلى حد بعيد في أفكار القرن السابق ، وكان مشدوداً إلى نظم وطرائق فرانكي .

ومع ذلك فقد بقي كل من اسكر يتنجر وإبرت يقاوم مقاومة مجيدة في زمانهما في ميدان واسع بمفردهما . وليس من الصواب أن ننكر كلية في عصر الشعراء والمفكرين أي رغبة حقيقية في التنظيم الداخلي للمكتبات فإن الجهود التي بذلها غوتة في سبيل المكتبات – التي وضعت تحت إشرافه – في جيناثم ويمار لتدل على هذه الرغبة في التنظيم[٤].

بيد أنه يبدو أن تنظيم المعرفة البشرية في ذلك الوقت جعل من الصعب على طبقة المتعلمين

---

(١) ترجمة بالإنجليزية براون Arthur Browne بعنوان :
A General Bibliographical Dictionary, from the German Frederic Adolphus Ebert. Oxford, 1838 .

(٢) "Ueber offentliche Bibliotheken".

(٣) Die Bildug drs bibliothèaue. There is ors English translation

(٤) See C. F.Gosnell and Geza Schutz = "Goethe the Librarian , quartery 11, 1932. 367-374: otto lerch = Geotheunddie Weimorer. Bibliothek leipzig, 1929.

أن يفهموا الوضع في المكتبات ، وهى الطبقة التى استمدت منها المكتبات موظفيها . مما جعل هوفمان فون فالرسلبين Hoffman von Fallersleben أمين مكتبة جامعة برسلاو يعلن أن الخدمة المكتبية الملقاة على عاتقه كانت تفوق في عذابها وقسوتها العقاب البدني الذي يلاقيه الجندي في جيش القرن الثامن عشر . وقد غامرت الدورية المهنية سيرابيوم Serapeum بنشر آرائه في سنة ١٨٤٠ .

وكان تكوين لجنة المكتبة وبالاً على ميزانية المكتبة الضعيفة من أساسها فقد خصص جزء منها للمتخصصين ، وأفراد الأساتذة الذين كانوا في عضويتها[١] مما حدا بأحد أساتذة القانون الدستوري في توبنجن – روبرت فون موهل Robert von Mohl إلى مهاجمة مثل هذه الأوضاع السيئة فأشعلها حرباً شعواء ضدهم . وفي سنة ١٨٣٦ قام بنفسه على إدارة المكتبة وكلماته التالية توضح فكرته عن الواجبات التي كان عليه أن يقوم بها . «يجب على الأمين الأول مهما كان أن يفكر ويخطط ليل نهار في سبيل مكتبته . وفي سبيلها عليه أن يشتري ويتبادل ويستجدي وأكاد أقول عليه أن يسرق» . بيد أنه واجه اعتراضات مريرة من جانب زملائه ومن جانب الإدارة . وبذلك فشل في تقييد نفوذ اللجنة على المكتبة ووضع لوائح وأسس محددة لإنفاق المخصصات المالية .

ويبدو أنه في هذه الفترة لم يكن الوقت حان بعد لحدوث إصلاحات جذرية في عالم المكتبات ، وهي الإصلاحات التي تمت بعد ذلك في العقود التالية من القرن التاسع عشر ولكى نقوم هذه الإصلاحات المكتبية بدقة لا بد لنا من التعرف على الحوادث المعاصرة فى كل من إنجلترا وفرنسا وخاصة المتعلقة بتطور المتحف البريطاني والمكتبة الأهلية .

يرتبط الإصلاح الكبير الذي جرى على المتحف البريطاني بالشخصية الإيطالية أنطوني بانيتنزي Anthony panizzi وعلى الرغم من أنه لم يكن عالماً إلا أنه قد أخرج لنا روائع من يده ووهب نفسه كلية للمجتمع وأخذ دوراً كبيراً في الحياة السياسية، ولما كان عاطفياً بطبيعته فقد اضطر إلى الهرب من بلده، وقوبل باعتراضات كثيرة من جوانب متعددة في منصبه الجديد في بلد أجنبي (إنجلترا) . ومع ذلك فقد صمد لا من أجل أغراض شخصية وإنما فقط من أجل المؤسسة التي وهبها كل حياته والتي اعتقد أنه القادر على تطويرها ، حتى كان معاصروه

(١) كانت إدارة المكتبات الجامعية الألمانية في القرن التاسع عشر غالباً في يد لجنة تتألف من موظفي الجامعة مثل المدير والعمداء وأعضاء هيئة التدريس . ولكى يصل الأمين إلى الاعتراف المهني الكامل به ويتحمل كافة مسؤلية كان عليه أن يحرر نفسه أولاً من الإشراف الصارم الذي كانت تقوم به هذه اللجنة .

يلقبونه بالمؤسس الثاني للمتحف البريطاني ، ونابليون المكتبيين وقد قال عنه جارنيت Garnett خليفته «لقد حكم بانيتنزي المكتبة مثلما حكم صديقه كافور cavour بلده وبروح وأهداف متشابهة تقريباً ، يتم تنظيمها الداخلي بيد بينما يوسع حدودها باليد الأخرى .

وإن التقدم السريع الذي حققه بانيتنزى في سلم الترقي الوظيفي إنما يشير إلى مدى تأثير شخصيته على جميع العاملين معه ففي عام ١٨٣١ عين مساعداً أول ، وأميناً للكتب المطبوعة عام ١٨٣٧ وأخيراً الأمين الأول عام ١٨٥٦ . وكان باتيتنزى يدافع دائماً عن مبادئه في تقرير إلى الأوصياء وفي محاضر الأعمال مع ممثلي الحكومة ، وحتى في اتصالاته الاجتماعية بأصدقائه ومعارفه . تلك هي المبادىء التي لخصها في بداية حياته العملية في الجمل الثلاث الآتية .

يذهب إليه الأغنياء والأرستقراطيون لتسلية أنفسهم بالقراءة فلندعهم يدفعون ثمن تسليتهم(١).

ومنذ إنشاء المتحف البريطاني كانت مقتنياته من المطبوعات والمخطوطات تنمو باطراد وعلى نطاق واسع ويرجع الفضل في ذلك بصفة خاصة إلى الهبات والعطايا الكبيرة التي وردت إليه من وقت لآخر مثل مكتبة الملك جوبع الثالث Goorge كما أن البرلمان كان يصدر من وقت لآخر قوانين بإضافة المجموعات الخاصة إليه ومع ذلك فقد كان المتحف يفتقر إلى النظام والاستمرار . ومنذ تولي بانيتنزى أمانة المتحف تردد الرأى بضرورة أن يصبح المتحف مكتبة قومية جديرة ببلد مثل إنجلترا وأصبح من المحتم على المتحف حفظ جميع الكتب الإنجليزية وأهم الكتب الأجنبية ، وتبعاً لذلك فقد ضمن تخصيص ميزانية سنوية كبيرة وثابتة بدلاً من الإعتماد كلية على مصادرة المجموعات الخاصة ، الأمر الذي كان يخضع للظروف . وكانت نتيجة ذلك كله أن تضاعفت المجموعات في فترة قصيرة حتى وصلت في سنة ٨٧٠ إلى مليون مجلد . وفي نفس الوقت كان بانيتنزي يعرف كيف يستجلب الهدايا القيمة مثل مكتبة صديقه جرنفيل Grenville وأخيرا وبمجهوده وإصراره وحده، وعلى الرغم من معارضة زملائه ، قوى ودعم قانون الإبداع

(١) تستحق كلمات كوبيت أن نقتبسها في شيء من التطويل : لندع هؤلاء الذين يرغبون فيه ، ويجعلونه مكاناً للتسلية ، يساهمون في تدعيمه . لماذا ندعو التجار والفلاحين إلى أن يدفعوا لتدعيم مكان قصدت به فقط تسلية المتطلع والغني ، وليس لصالح أولتعليم الفقير فإذا أرادت الأرستقراطية المتحف كمكان للاستمتاع فلندعهم يدفعون «مقتبسه من» :

Hansard's Parliamentary debates, Ser,3, Vol XVI march April I,1833. 1003.

(٢) Cf.R.C.B.Patridge = the history of the legal deposit of book throughout the British Empire, London 1938 .

وطريقة إيداع النسخ بعد أن كان يؤدى بمنتهى الإهمال[٢] .

وبنفس الحماس والقوة تصدى لمشكلة الفهرسة التي كانت تلح دائماً في البحث عن حل بمجرد وصول بانيتنزي إلى المتحف، فقاوم الفهرس المصنف ونجح في إدخال فهرس هجائي وأسس بعض قواعد اعتبرت فيما بعد ذلك قوانين فى عالم المكتبات

إن «المتحف البريطاني» ليس معرضاً ولكنه مؤسسة لنشر الثقافة . إنه جزء من الخدمات المدنية ويجب أن يعمل بنفس الروح التي تعمل بها بقية الأجزاء . ويجب أن يدار بأكبر قدر من الحرية» . ولعل مايقصده يتضح أكثر حين نذكر الملحوظة التي أبداها معاصره عضو البرلمان كوبيت Gobbett بأن المتحف البريطاني مكان المكتبات الإنغلوساكسوني . ولقد توقف نشر الفهرس مؤقتاً بعد محاولة غير ناضجة من جانب الأوصياء ومع ذلك فقد استمر العمل فيه تحت إشراف بانيتنزي إلى أن تم مخطوطاً فقط . ولم يطبع الفهرس إلا متأخراً في السنوات (١٨٨١ - ١٩٠٠) بنفس الهمة والنشاط اللذين عرفا عن صاحبه ومنشئه .

ولقد كان لبانتينزي فضل كبير بالنسبة للتغيرات والإضافات التي أدخلت على مبنى المتحف البريطاني في أيامه فقد كانت قارة أوروبا تعتز بالتصميم الذي يقتصر على الصالة القديمة والرواق ، واقتصر التغييرفقط على تعديل الحجم، وبينما لم تستطيع أمريكا نفسها أن تتخلص من هذا التقليد فإن بانيتنزي أحدث التغييرات التي تطلبتها الظروف ففصل القاعات المخصصة للكتب عن تلك التي يستخدمها القراء. وأغلب الظن أنه تأثر كثيراً بقصر الكريستال Crystal palace الذي كان قد تم بناؤه آنذاك والذي أثبت إمكانية البناء الجديد . وكان ارتفاع قبته وسعته مثار إعجاب الجميع ولم يقل ارتفاعه عن البنتيون الروماني Roman Pantheon إلا قليلاً جداً ، وأصبح يتسع لبضعة مئات من القراء .

وأصبحت المخازن الجديدة تحيط بقالعة المطاعة، والمبدأ الذي شيدت المخازن على أساسه كان قد أعلنه أحد الكتاب من قبل فى فرانكفورت ولكن أحداً لم يعره اهتماماً في ذلك الوقت . وإن تصميم جارتر Gartner الجميل لمبنى مكتبة ميونيخ قد اقتصر فقط على قاعات منخفضة تغني عن استخدام السلالم . أما في المتحف البريطاني فقد كانت للمخازن رفوف متحركة ووسائل ضد الحريق باستخدام الحديد كلية وبذلت أعظم الجهود حقيقة لتوفير الحيز في المخازن وذلك بوضع تركيبات الرفوف ظهراً لظهر ، وهكذا بنيت المكتبة الجديدة لتمثل حلقة في تاريخ مباني المكتبات .

وكان أول تقليد لنمط المتحف البريطاني في البناء هو ماحدث في باريس عند التوسيع الكبير للمكتبة الأهلية وقد دعت إليه الحاجة الملحة بعد الأعداد الضخمة من الكتب التى أدخلتها الثورة إلى المكتبة التي نمت نمواً بطيئاً ولكن بخطى ثابتة . وقد رتبت الكتب آنذاك بحيث تعطي صورة متكاملة عن المجموعة . ففي البداية بعد موت فان برايت سنة ١٨٣٧ عزلت الأجزاء القديمة المفهرسة من المجموعة في وحدة مستقلة سميت fonds porte أما الكتب غير المفهرسة والتي أدخلت إلى المكتبة ابتداء من ١٧٨٩ والإضافات المتأخرة فقد جمعت في وحدة أخرى سميت fonds non porte وكل من هاتين المجموعتين قسمت إلى أقسام نظام الرفوف الذي وضع أسسه كليمو . كما بدأت فهرسة المجموعات وكانت هناك محاولة في البداية لإعداد فهرس مصنف كما حدث في إنجلترا وتم إعداد بعض أجزاء المجموعة وبدىء في طبعها ولكن هنا أيضاً توقف العمل ولم يصل إلى نهايته . وبقدر ماكان بانيتزي بالنسبة للندن وبقدر ماكان أسكر تينجر ليونخ أصبح ديليزل Delisle بالنسبة لباريس .

فقد كان ليوبولد ديليزل أحد الباحثين الفرنسيين اللامعين في القرن التاسع عشر، بدون أن يحتل أبداً كرسي الأستاذية أصبح عميداً للمدرسة التاريخية . وكان قد تخرج في مدرسة الوثائق Ecole des chartez في باريس . وبطبيعة الحال فقد كرس نفسه لقسم المخطوطات وكانت فهرسة وتصنيف المخطوطات عمله الأساسي ويرجع إليه – أكثر مما ويرجع إلى اسكميلر – فضل إعداد الفهرس الحديث للمخطوطات .

وعند توليه رئاسة المكتبة في سنة ١٨٤٧ أظهر مقدرة كبيرة في تنظيمها على نطاق واسع ، وقد أثبت كفاءة فائقة قبل ذلك بتوقيت قصير في حماية مجموعات المكتبة ضد هجمات الكومون Commune أما كيف جمع بين الدراسة الجادة والمهارة السياسية فهذا مايظهر بوضوح من كتابه الشهير Libri وقد حدث أن فى إيطاليا عالماً ومغامراً بعد أن وصل إلى منصب كبير في فرنسا استغله إلى مدى بعيد في نهب وسلب مكتبات باريس ومكتبات الأقاليم ، والإجراء الذي اتخذه ضده عرقلته المنازعات السياسية في سنة الثورة ١٨٤٨ وقد نتج عن ذلك أضرار جسيمة ومضت عدة عقود قبل أن يتمكن ديليزل من إتخاذ إجراءات رادعة ضد السرقة بل لقد استطاع أن يسترد لفرنسا جزءاً كبيراً من الذخائر المسروقة .

وبرئاسة ديليزل للمكتبة استطاع أن يفعل لقسم الكتب المطبوعة مافعله بالنسبة للمخطوطات ففي البداية وضع الإضافات الجديدة داخل الأقسام العامة في مجموعة خاصة سميت Fonds nouveau حيث رفقت هذه الكتب داخل تلك المجموعات تبعاً للرقم الجاري (Numerus currens) .

وفي نفس الوقت بدأ صدور قائمة بالإضافة الجديدة داخل الأقسام العامة توزع على الجمهور – منسوخة في البداية ثم مطبوعة بعد فترة – ثم بدأ العمل في المجموعة غيرالمعدة Fonds non porte بحيث لم تأت سنة ١٨٩٣ حتى كان كل شيء في المكتبة مسجلاً على بطاقات . وبعد ثلاث سنوات بدأ طبع الفهرس الهجائي ومنذ ذلك الحين ، على الرغم من وجود كثير من العقبات ، استمر العمل فيه ولم يكتمل طبعه بعد(١) .

وإذا ولينا وجهنا إلى الخلف نحو ألمانيا فإن السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو : هل كان ماحدث في ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر متأثراً بالخارج بالأمثلة التي وجدت في باريس ولندن؟!

وبالنسبة لباريس فالإجابة بالنفي . فقد كانت لديليزل – بكل تأكيد – علاقات نشيطة جداً بزملائه عبر جبال فوزجز Vosges في شرق فرنسا بينما كانت ألمانيا تملك النموذج الكامل الذي يحتذى به في ميونخ وأهم من ذلك كله فإن إعادة تنظيم المكتبة الأهلية قد جاء متأخراً جداً بحيث لايمكن اعتباره نموذجاً لألمانيا . وكان الأمر يختلف بالنسبة إلى بانتينزى تلك الشخصية التي جمعت في قالب واحد النموذجين اللذين خلقهما أبرت وفون موهل من قبله . ونحن نعلم أن أصحاب المناصب والسلطة في ألمانيا كانوا على اتصال به . وسوف يكشف للبحث العلمي المنظم – في رأيي – عن التفصيلات الدقيقة لهذه العلاقات . ونتيجة لذلك فإن نوع البناء الجديد الذي خلقه بانيتنزي شكل جزءاً أساسياً في برنامج الإصلاح الألماني كما سنرى .

وعلى رأس هذه الحركة كان العالم اللغوي فريدريك ريتشل Friedrich Ritschl من مدينة بون، الذي لم يذكر كاتب سيرته إلا مدحاً لإدارته للمكتبة في الفترة من ١٨٥٤ – ١٨٦٥ ، على الرغم من أن مؤرخ جامعة بون قد اجتهد في الحط من قدره وقيمته في هذا الشأن ويبدو أنه كانت له صفات كثيرة سيئة ولكننا نرى له أثراً واضحاً في أية تجديدات حقيقية ، ولكنه كان متعلقاً إلى حد كبير بمكتبة الإسكندرية التي احتذاها في إدارته ، وقد حول مكتبة بون ذات الإدارة الصارمة السيئة إلى «أداة متساهلة ذات إدارة ممتازة» .

ومع ذلك كله ، فإنه يهمنا بصفة خاصة تأثير شخصية ريتشل ، فمن بين مرءوسيه وعدد كبير من المساعدين المتطوعين تكونت مدرسة المكتبيين التي أثبتت فاعليتها وتأثيرها في السبعينات .

---

(١) مازال طبع هذا الفهرس مستمراً وكان من المتوقع له أن ينتهى العمل فيه بعد ١٩٤٠ ولكن اندلاع الحرب في ١٩٣٩ قلبت الخطط . ونجد في كتاب :

E. G.Ledos :Histoire des catalogues des Livers imprimes de la biliothekors Nationale. Paris 1936

تقريراً مفصلاً عن الفهارس المختلفة للكتب المطبوعة الموجودة في هذه المكتبة العظيمة كما يعطي التصدير العجيب الذي كتبه م. جوليان كاين ، المدير العام للمكتبة نبذة تاريخية عن إجراءات الفهرسة في هذه المكتبة .

وكان أحد هؤلاء هو كليت Klette الذي ألف نشرة صغيرة أسماها : الحكم الذاتي في مهنة المكتبات[1] ومنهم أيضاً دزياتزكو Dziatzko أول أمين مكتبة مؤهل في بروسيا ، وهو الذي أعاد تنظيم مكتبة برسلاو السيئة الإدارة ، بنفس الروح التي استمدها من أستاذه كما كتب تعليماته الموضحة عن فهرس البطاقات الهجائي . وانتقل إلى جوتنجن عام ١٨٨٦ حيث احتل كرسي علم المكتبات الذي كان قد أنشأ حديثاً آنذاك .

وكان باراك Barack مؤسس ومدير مكتبة استراسبورج لعدة سنوات أميناً متخصصاً كذلك كان هارتوج Hartwing في هالي . وقد وجه اهتمامه - مثل ريتشل وزياتزكو - أساساً لإتمام ومتابعة فهرسة المجموعات . وكانت ثمرة جهوده مشروع فهرس هالي المصنف الذي لاقى قبولاً عاماً . ولعهده ثمرة أخرى هامة هي أنه في السنوات ١٨٧٨ - ١٨٨٠ أقيم بناء المكتبة الجديد الذي استفاد من النظام الأنجلو - الفرنسي في بناء مخازن الكتب لأول مرة في ألمانيا وتلت ذلك سلسلة من المباني الجديدة روعيت فيها مختلف النواحي العملية : من مخازن ، وحجرات عمل للموظفين ، قاعات مطالعة ، حجرة دوريات وقد جرت محاولات للربط بين القيم الجمالية والنواحي العملية في المبنى كما تجدها في دار الكتب الألمانية Deutsche Bucherei في ليبرج التي تم إنشاؤها في سنة ١٩١٦ .

لقد امتدت حركة إصلاح المكتبات إلى دوائر واسعة في ألمانيا ووجدت تأييداً وعوناً من جانب المثقفين والدارسين . وحلت الواقعية محل المثالية وانصب الاهتمام في هذه الفترة على حل المشكلات الفردية بطرق محددة ودقيقة فقد ابتكرت تنظيمات واسعة النطاق لإحكام السيطرة على مواد نقل المعرفة التي أصبحت ترد إلى المكتبات بأعداد هائلة . وكان لكل نظام من النظم المكتبية صحيفة أو أكثر تناقش مشاكله . وخلال كل هذا نالت المكتبات درجة كبيرة من الأهمية لم تحظ بها من قبل .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أنه بعد تكوين الإمبراطورية الألمانية وما تبع ذلك من الازدهار السياسي والاقتصادي ، خصصت أموال كثيرة للمكتبات وأكثر من ذلك أدى تطور التجارة والتكنولوجيا إلى زيادة إمكانيات المحافظة على مجموعات الكتب بإزدياد الحاجة إليها . وأخيراً فقد تنبهت الحكومة إلى التزاماتها نحو المكتبات .

لم يكن أحد قد تنبه بعد إلى أهمية المكتبة كمؤسسة عامة مثلما تنبه التوف Althoff الذي كان الروح الدافعة لوزارة التربية والتعليم البروسية منذ الثمانينيات من القرن (التاسع عشر) . وفي

(١) Die Selbstandigkeit des bibliothekarischen Berufes وهذه نشرة لم تترجم إلى الإنجليزية .

سيرة حياته التي لم تكتب بعد سوف تحتل جهوده في سبيل المكتبات جزءاً كبيراً[١] . فقد تتكلم عن عصر التوف المكتبي الذى حارب من أجل تمويل أكثر كفاية للمكتبات التي أشرف عليها، وكان إهتمامه الثاني ينصب على موظفي المكتبة : زيادة عددهم وتحسين وضعهم الاقتصادي والاجتماعي ، وأخيراً كافح من أجل الإعداد المهني الكامل والاستخدام المنظم لأمناء المكتبات . وقد وجدت هذه الجهود التي بذلتها الوزارة تأييداً من المجلة المهنية الجديدة التي أسسها هارتوج بعنوان (Zentralblatt fur Bibliothekswesen) ومن اتحاد المكتبات الألمانية Verein Deutscher Bibliothekare الذي أسس في سنة ١٩٠٠ باجتماعاته السنوية .

وبطبيعة الحال فقد استفادت المكتبة الملكية في برلين من جهود التوف فقد أعيد تنظيمها في سنة ١٨٨٥ حيث بدأت وظيفتها كمكتبة قومية . وعلى الرغم من أن النتائج المرجوة لم تتحقق بكاملها، كما سنرى فيما بعد ، فقد احتلت المكتبات الملكية مكان الصدارة بين المكتبات الأخرى ، وقد أثبت مبدأ تعيين أمين متخصص فاعليته وجاء بأحسن النتائج كما وضح من حالة هارناك Harnack الذي تولى إدارة المجموعات سنة ١٩٠٥ وأشرف بنفسه على نقلها إلى المبنى الفخم الجديد[٢] .

وبذل التوف قصارى جهده في سبيل إقامة تعاون عضوي بين المكتبات لايقل عن جهده في سبيل النهوض بالمكتبة الملكية . وفي سبيل هذه الغاية كان يصدر القرار إثر القرار . وفي سنة ١٨٨٥ كانت تصدر في برلين فهارس سنوية بمطبوعات الجامعات الألمانية[٢] . وبعد ذلك بقليل صدر فهرس بالرسائل الجامعية [٣] . ومن سنة ١٨٩٢ فصاعداً طبعت مكتبة برلين قوائم بالكتب الحديثة الوصول إلى المكتبة وحدها أول الأمر ، وبعد ست سنوات أضيفت إلى هذه القوائم كتب مكتبات جامعات بروسية[١] ويضاف إلى هذه الجهود تسجيل كل الكتب القديمة إلى سنة ١٨٩٨

---

(١) لعل كتاب : Arnold Sache = Feridrich Althoff und seiv Werk. Berlin. 1928 يسد الثغرة التي كانت موجودة عند كتابة هذه العبارة فمن بين صفحاته الـ ٣٥٠ يخصص ١٠ صفحات لجهود التوف المكتبية ولكن كثيراً من هذه الجهود تنبع من وتتصل بإنجازات تربوية واسعة تحتل جزءاً كبيراً من هذه الصفحات العشرة

انظر أيضا : Friedrich Schmidtott : "Althoff und die bibiotheken" Zentralibatt fur Bibliothekswesen. LVI, 1939.-103.

(٢) انظر F.E.L Lirsch:" The scholar as librarian,to the memory of Adolf von Harnack,, Library quarterly ix, 1936. 266 - 320 .

(٣) Johresverzeichnis der an den deutschen universitaten erschienenen Schriften . Bibliographischer Monatsbericht unber neu erschienenen schul (٤) - Universitats - und hochschulschriften .

Berliner Titeldrucke ومن أجل نبذة عن تاريخ هذا المخطوط أنظر مقدمة Prussian Instructions .Ann Arbor 1938. التي ترجمها أندرو أسبون Andrew Osborn.

في فهرس هجائي موحد . وهذه الفكرة ليست جديدة فقد ترددت في عدد من الأقطار الأخرى ، ولم تدخل ألمانيا إلا في الأربعينات وقام على تنفيذها التوف وبدأ العمل فيه في منتصف التسعينات واليوم تم الفهرس في صورته الأولية وقد حالت الحرب العالمية الأولى دون طبعه . وقد أصبح لمكتب استعلامات برلين (Auskunftsburo Deutseher Bibliotheken) أهمية خاصة[٢] . فقد افتتح في سنة ١٩٠٥ وتطور إلى أن أصبح مركزاً للبحث الببليوجرافي . وأخيراً أصبحت هذه المؤسسات ذات فائدة كبيرة بالنسبة لنظام الاستعارة بين المكتبات (Deutscher Leihverkehr الذي أخذ منذ ١٨٩٢ يربط بين المكتبات الألمانية على نطاق واسع .

ومن الحوادث الأخرى فى عهد التوف أذكر تكوين مجموعة موسيقية ألمانية في برلين وفهرس بأوائل المطبوعات . وهكذا وضع التوف موضع التنفيذ خطط ليبنز في التنظيم وأفكاره بطرق جديدة تقابل الإحتياجات الجديدة .

---

(١)بدأ Deutscher Gesamtkatalog فى سنة ١٩٣١ تحت عنوان :
Gesamtkatalog der preussischen Bibliotheken وصدر منه ١٤ مجدا وذلك حتى منتصف حرف B فقط .

B.H Vouillème = Die Inkunabeln der koniglichen Bibliothek Und der anderen Berliner Sammlungen . Leiqzig, 1906 . (٤)

obeikandl.com